جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

الأسطورة في رواية "بلد المحبوب" ليوسف القعيد

إعداد

خالد Zhang iunbo
دكتوراه بقسم اللغة العربية
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

(العدد السابع والثلاثون)
(الإصدار الثالث .. أغسطس)
(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

الأسطورة في رواية "بلد المحبوب" ليوسف القعيد

خـالد Zhang iunbo

دكتوراه بقسم اللغة العربية كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

البريد الالكتروني:zhangiunbo@gmail.com

الملخص:

تتميز رواية بلد المحبوب ليوسف القعيد بحب الوطن، والاعتزاز بنهر النيل العظيم، الذي جعله الراوي أنشودة عذبة، على طول الرواية، والرواية تعبر عن رؤية كاتبها، وموقفه مما صار بوطنه من متغيرات، وقد لجأ المؤلف إلى توظيف الأساطير والرموز، واتخاذها وسيلة للنقد والتقويم، وقد أثرى يوسف القعيد خطابه الروائي بتوظيف الأسطورة، في البناء الفني في هذه الرواية؛ فأتت عدة رموز أسطورية، بارزة في الرواية تتصل بنهر النيل، والحضارة المصرية القديمة،ومن ذلك أسطورة "عروس النيل"، وأسطورة "إيزيس وأوزوريس"، وحكاية "الثلاثة أنهار"، وكذلك الرموز المتصلة بفيضان النيل، والمطر، والشجر، واللون الأخضر بدلالاتهم على تغير وبعث الحياة في وادي النيل، مما يُثري حياة المصريين بالسعادة الجسمية والنفسية، ومن المعروف أن الأسطورة تعكس فهم القدماء البدائي لأصل العالم والظواهر الطبيعية والحياة الاجتماعية، وتعبر عن القصص والحكايات؛ بواسطة صور خارقة للطبيعة وأشكال خيالية، ومن المؤكد أن مثل هذه الأساطير قد أُلفت في مرحلة فكرية راقية، وتُعد الأسطورة حصيلة تأمل الإنسان، ونتاج رغبته في السيطرة على واقعه أو على قوة الطبيعة، كما أن الأسطورة تجسد الصراع بين القدماء وقوة الطبيعة والسعي وراء المثل العليا، وقد اتخذ المؤلف المحبوبة رمزاً لوطنه الحبيب "مصر"، وعنوان الرواية "بلد المحبوب" أورده المؤلف مختصاً بكلمة "بلد" فهي بلد محددة بكل ما تشمله من بشر، ونبات، وعلاقات، وحياة، فالكلمة تحمل دلالات عاطفية متعددة. وكذلك الراوي

هو واحد من أبناء هذه البلد العائدين. فرمزية العنوان "بلد المحبوب" يقدم دلالات ومعاني حب عميق للبلد بالنسبة للراوي أو غيره من الأشخاص، وقد اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي، مع الاستعانة بالمنهج الأسطوري والمنهج النفسي.

الكلمات المفتاحية: بلد المحبوب، يوسف القعيد، الأسطورة، نهر النيل، إيزيس وأوزوريس، عروس النيل.

The Myth in the Novel "The Beloved Country" by Youssef Al-Qaeed

Khaled Zhang iunbo
Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Alexandria University, Egypt.
Email: zhangiunbo@gmail.com

Abstract:
The novel "The Beloved Country" by Youssef Al-Qaeed is characterized by love of the homeland and pride in the great Nile River, which the narrator made a sweet anthem throughout the novel. The novel expresses the vision of its writer and his position on the changes that have occurred in his homeland. The author has resorted to employing myths and symbols and using them as a means of criticism and evaluation. Youssef Al-Qaeed has enriched his narrative discourse by employing myth in the artistic construction of this novel. Several mythological symbols, prominent in the novel, are related to the Nile River and ancient Egyptian civilization, including the myth of the “Bride of the Nile,” the myth of “Isis and Osiris,” and the story of the “Three Rivers,” as well as symbols related to the Nile flood, rain, trees, and the color green, with their connotations of change and the revival of life in the Nile Valley, which enriches the lives of Egyptians with physical and psychological happiness. It is known that myth reflects the primitive understanding of the ancients of the origin of the world, natural phenomena, and social life, and expresses stories and tales. By supernatural images and imaginary forms, and it is certain that such myths were composed in a high intellectual stage, and the myth is the result of human contemplation, and the product of his desire to control his reality or the power of nature, as the myth embodies the conflict between the ancients and the power of nature and the pursuit of ideals, and the author took the beloved as a symbol of his beloved country "Egypt", and

the title of the novel "The Beloved's Country" was mentioned by the author specifically with the word "country" as it is a specific country with all that it includes of people, plants, relationships, and life, as the word carries multiple emotional connotations. The narrator is also one of the returning sons of this country. The symbolism of the title "The Beloved's Country" provides connotations and meanings of deep love for the country for the narrator or other people, and the researcher followed the descriptive analytical method, with the help of the mythological method and the psychological method.

Keywords: The Beloved's Country, Youssef El-Qaid, myth, Nile River, Isis and Osiris, Bride of the Nile.

رواية "بلد المحبوب":

تحكي رواية "بلد المحبوب" قصة العاشق الذي ترك محبوبته ومحبوبه نهر النيل، قرابة عشر سنوات ليعود إلى مصر، بلد المحبوب. وفي سنوات الحل والترحال اشتاق إليهما شديداً، وكلّه شوق لرؤية مدينته التي حملها في وجدانه وضميره وعائلته وأقربائه، ومحبوبته التي أحبها طوال عمره، وتاق لرؤيتها والحديث معها عن أحلامه وأمانيه، والنيل الذي وعده أن يفيض على البلاد وهو في ديار الغربة.

ولأول مرة منذ سنين قد عاد الغائب إلى أرضه ووطنه وبلاده، واكتشف منذ لحظة عودته من المطار أن كل شيء قد تغير مع مرور الأيام في سنوات الحل والترحال قرابة عشر سنوات، فلا الملامح التي كانت محفورة لأهل بلده كما كانت، ولا الحقول الخضراء التي كانت تزرع على جانبي النيل كما هي، بل سرقتها المباني المتعددة والعالية، ولا ماء النيل مثلما عهده صافٍ. فالكل أصابه التغيُّر، إلا الشيء الوحيد الذي بقي على حاله، وهو مشاعر أمه الإنسانية، التي ما زالت كما هي.

ويُعد يوسف القعيد[1] من أبرز الكتاب المعاصرين، وتحديداً في فترة

(١) هو من مواليد محافظة البحيرة، مركز إيتاي البارود، قرية الضهرية. تخرج من مدرسة المعلمين وعمل مدرسًا بإحدى مدارس قريته، وفي عام ١٩٦٥م جند بالقوات المسلحة، وشارك في العديد من الحروب، مثل حرب الاستنزاف، وحرب يونيو، وحرب أكتوبر عام ١٩٧٣م، وبعد خروجه من القوات المسلحة عمل صحفيًا في بعض الصحف.
وله العديد من المؤلفات في مجال الرواية والقصة، ومن رواياته رواية (الحداد، والبيات الشتوي، وأطلال النهار، أخبار عزبة المنيسي، ويحدث في مصر الآن، والحرب في بر مصر، ووجع البعاد، وقطار الصعيد، وثلاثية شكاوي المصري الفصيح ...). وله بعض المجموعات القصصية، منها (الضحك لم يعد ممكناً، ومن يذكر مصر الأخرى، =

السبعينيات، وقد اهتم بالتعبير عن المحيط القروي المصري، وما يتصل به من قضايا، وعرف بنبرته السياسية الناقدة وقد تعرضت بعض أعماله للمصادرة. ويعتبر يوسف القعيد من رواد الرواية في مرحلة ما بعد نجيب محفوظ، الذي ربطته به علاقة متينة.

رمزية العنوان:

يحتل العنوان موقعاً مهماً ومتميزاً في بنية الخطاب الأدبي. وإن العنوان هو المرسى الأول، الذي تقع عليه عين المتلقي وهو يقرأ النص، فلا بد للمتلقي أن يهتم بقراءة العنوان اهتماماً قوياً قبل أن يدخل إلى ميدان المتن النصي.

«وهو غالباً ما يأتي بصورة رمزية لأنه يجب بحكم موقعه أن يحتل مساحة ضيقة، لكنها معبرة عما يريد الأديب أن يقوله في المتن، وهذه الرمزية تأخذ أشكالاً مختلفة، بحسب طبيعة كل أديب، وطبيعة كل نص أيضاً»(١).

بالنسبة للعديد من الروايات، يكون لاختيار عنوانها تأثير مهم على فهم القراء للعمل واستجاباتهم، لأن العنوان يرتبط بالحدث الرئيس أو الشخصية أو الموقع ارتباطاً وثيقاً.

وعنوان الرواية يسمى بـ "بلد المحبوب" فإنه يرتكز على موضوع المكان

=

والقصص من بلاد الفقراء). وتم تحويل عدد كبير من أعماله الروائية لمسلسلات وأفلام، منها: "البيات الشتوي، المواطن مصري، زيارة السيد الرئيس، وجع البعاد، بلد المحبوب، قطار الصعيد".

وحصل يوسف القعيد على العديد من الجوائز، منها جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ٢٠٠٨م، وقد حازت روايته "الحرب في بر مصر" المرتبة الرابعة ضمن أفضل مائة رواية عربية.

(١) سناء سلمان عبد الجبار، رمزية العنوان في كتب الربيعي، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد ٣، ٢٠٠٧م، ص ١٣١.

بشكل أساسي ومعلن، ويتخصص هذا المكان بالمكان البلدي "بلد المحبوب"، غير بلد لأي واحد.

ويمكن القول إن "بلد" يعتبر حاملاً عاطفياً وفكرياً للراوي إلى حد كبير.

فالراوي هنا هو واحد من أبناء البلد العائدين، ويمكن إلقاء نظرة على العنوان مرة أخرى، قد يتساءل القارئ عن خصوصية هذا العنوان.

وهذه التساؤلات، تجعل من العنوان عتبة رمزية واضحة منذ بداية النص، تجعل القارئ يغرق في عوالم من الأسئلة والعواطف والأضواء والاحتمالات بقلم الراوي.

والتعبير الرمزي "بلد المحبوب" يرمز إلى حب عميق لبلد المحبوب بالنسبة إلى الراوي أو غيره من الأشخاص، بحيث يكون حساساً على تغيرات بلد المحبوب، التي تطرأ في ميدان المجتمع والاقتصاد والسياسة والثقافة، وغيرها من الميادين المتنوعة.

فلا شك أن العنوان يحمل الكثير من الدلالات والمعاني.

الأسطورة

الأسطورة هي حكاية تنتقل من جيل إلى جيل بالرواية الشفهية، مما يجعلها ذاكرة الجماعة التي تحفظ قيمها وعاداتها وطقوسها وحكمتها، وتنقلها للأجيال المتعاقبة، وتكسبها القوة المسيطرة على النفوس.

وهي أيضاً: تسجيل للوعي الإنساني واللاوعي في آن معاً، وأنها أخذت مساراً تطويرياً بطيئاً، استثمرت أثناءه مبدأ لا يزال بحاجة لتفسير، لكنه قائم، وهو أن كل عنصر من الماضي يفرض نفسه وتأثيره على الجماهير بقدر لا يقاوم، ولا يقف أمامه أي اعتراض منطقي(١).

وعن علاقة الخرافة بالأسطورة فالحكاية الخرافية ترتبط دائماً بالأساطير وحكايات البطولة، «كما أنها اقتحمت عالم القصص، والملاحم، والروايات، فأضفت عليها كلها حيوية خاصة»(٢).

وعلم الأساطير يهتم بتأويل فكرة قديمة، «تحولت مع الأزمان المعرفية للجماعات إلى تراث لاعقلاني (اللامعقول) في أغلب الأحيان، ويدرس الثقافات التي تندرج الأساطير في سياقها كأشياء حية، وتمثل حقائق كبرى دينية وغير دينية، بقدر ما تنقل من ظواهر اعتقادية أو حقائق اجتماعية، مقابل الحقائق التاريخية الفعلية»(٣).

وكلمة "أسطورة" مشتقة من الكلمة اليونانية القديمة Mythos، والتي تشير إلى القصص والروايات والحكايات المتنوعة.

---

(١) سيد محمود القمني، الأسطورة والتراث، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٢١.

(٢) فردريش فون ديرلاين، الحكاية الخرافية (نشأتها، مناهج دراستها، فنيتها)، ترجمة: نبيلة إبراهيم، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣م، ص ١١.

(٣) أحمد خليل، معجم المصطلحات الأسطورية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص ١٧.

وتعد الأسطورة مصدر الحضارة الإنسانية، باعتبار أنها ظاهرة ثقافية معقدة، وهي نتاج تكامل عناصر شتى من الثقافة الإنسانية، في ظل ظروف تاريخية وثقافية مختلفة.

وتعتبر الأسطورة منظومة ثقافية متميزة ذات خصوصية عالية، فهي المخزون الثقافي والوعاء الفكري الذي لا ينضب.

ولقد اتجه الأديب المعاصر، إلى إعادة استقراء الأسطورة لتوظيفها داخل إنتاجه الأدبي، وذلك بواسطة استدعائها أو استحضار رموزها الأسطورية لإبداع جمالية فنية من جهة، وللتعبير عن مختلف القضايا، التي تمس وتتناول المجتمع والواقع وخبايا النفس الإنسانية(١).

تجليات الرموز الأسطورية ودلالاتها في الرواية:

وقد أغنى الأديب يوسف القعيد خطابه الروائي بتوظيف الرموز الأسطورية، واستند عليها في البناء الفني للخطاب الروائي في هذه الرواية.

أولاً- أسطورة عروس النيل:

لقد وردت كلمة "عروس النيل" في هذه الرواية ثلاث مرات، المرة الأولى التي قد ذكرت كلمة "عروس النيل" حدثت في طريق البحث عن المحبوبة قبل أن يراها العائد من الغربة قرابة عشر سنوات، كما ورد في النص: «قالوا لي: إنه في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، عندما كان المصريون يصلون ويقدمون له عروسته السنوية، كان يتأخر في الوفاء بوعده من باب الدلال والعشق فقط، دلال العشاق والمحبين، ولكنه كان يأتي دائماً، كان يفي»(٢).

(١) وول شوينكا، الأسطورة والأدب والعالم الإفريقي، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦م، ص ١١٠.

(٢) يوسف القعيد، بلد المحبوب، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٨٧م، ص ١٠٢.

وقد وردت في المرة الثانية بعد أن يرى العائد محبوبته، التي تظهر في حلمه دائمًا في سنوات الحل والترحال وهي غارقة في نهر النيل، كما يرد في النص:

«يبدو أن ما يحكونه عن عروس النيل حقيقة، وأن احتياجه لعروس كل عام أمر مؤكد، الفارق أنهم كانوا يحضرون له العروس، من قبل، في احتفال ضخم، ولكن الذي يحدث الآن، أنه هو الذي يبحث عن العروس، ويختارها ويأخذها لنفسه عن طريق اسم جديد هو الغرق»(١).

أما المرة الأخيرة التي وردت فيها "عروس النيل" فقد حدثت في الحالة التي ذكر وأكد الضابط واقعة غرق العروس منذ سنوات، كما ورد في نص الرواية:

«سألوه فأكد الواقعة، وتجولت الدموع في عينيه، وهو يتحدث عن جمال الغريقة ورقتها وعذوبتها. وأكد أن النهر اختارها عروساً له في العام الذي غرقت فيه، بعد أن ضنت البلاد عليه بعروسة، إنه –أي النهر– اختارها هي بالذات لأنها أجمل إنسانة على وجه الأرض كلها»(٢).

ومن هنا كانت العروس تُختار من بين أجمل النساء في هذه الجزيرة لإهدائها لبحر النيل، وتُوهب للنيل في احتفال يشارك فيه ويشهده الفرعون، وهم يمدحون عظمة وقداسة النيل في المشاركة في الاحتفال، انتظارًا لفيضان النيل وعطائه، مما جعل بحر النيل يُسبب للجماهير المصريين حياة حسنة، في هناء وصفاء وسرور في الأيام القادمة لهم فيما بعد.

ولكن يتعارض مضمون حكاية عروس النيل في هذه الرواية مع أسطورة عروس النيل أيام الفراعنة إلى حد ما، حتى في زمن الرواية؛ تُغرق في النيل

(١) يوسف القعيد، بلد المحبوب، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٨٧م، ، ص ١٤٥.

(٢) السابق، ص ١٦٨.

أجمل النساء. فكانت تلقى عروس النيل أيام الفراعنة إلى بحر النيل ليفيض النيل.

«المصريون القدماء كانوا يقدمون للنيل "الإله حعبي" –في عيده– فتاة جميلة، وكان يتم تزيينها وإلقاؤها في النيل كقربان له، وتتزوج الفتاة بالإله "حعبي" في العالم الآخر»(١). وذلك لكي تفيض مياه نهر النيل بانتظام، حتى لا تؤدي إلى الكارثة الطبيعية بسبب فيضان النيل.

«واحتفل قدماء المصريين كل عام بعيد وفاء النيل، والذي يوافق ١٥ أغسطس، وهو الشهر الذي يأتي فيه الفيضان محملاً بالطمي والماء، وكانوا يلقون عروسة من الخشب في النيل خلال حفل عظيم، من الفرعون إلى الجماهير العاديين المصريين، الذين كرسوا أفضل وأنفس الأشياء، التي امتلكوها في منازلهم بأنفسهم للنيل "الإله حعبي" لعبادته. والغرض من عبادتهم هو رجاء أن يُسبب النيل "الإله حعبي" لهم فيضاناً كافٍ ولكن ليس مدمرًا، والرجاء بحصاد وافر في الأيام القادمة، التي سوف يستقبلوها بشكل إيجابي»(٢).

ويصف العائد محبوبته بوصفها عروس النيل، لأنها تحمل رمز البعث، لا الموت والنهاية على صورة عروس النيل. وذلك لتبعث مع العائد من جديد بعثًا أكثر حيوية وخصوبة وتفاعلاً، حتى تحرك النيل الراكد لتطرأ المعجزة "فيضان النيل" بعد سنوات، وتحقق نهضة جديدة، وخيراً كثيراً. حيث اكتسب المصريون القدماء الحصاد والسعادة في حياتهم بسبب وجود عروس النيل في فترتهم، ولكن الآن يكشف العائد أن المصريين يعيشون في عصر فيضان

(١) الشيماء أحمد فاروق، في عيد الوفاء "عروس النيل" أسطورة رسختها الأقلام ونفاها المؤرخون، مجلة الشروق، ١٥/٨/ ٢٠١٩م.

(٢) مارجريت بنسون، موسوعة مصر القديمة، أكسفورد ونيويورك، حقائق في الملف، ١٩٩١م، ص ٨٩.

الأموال والحياة الفاسدة، التي تتخلى عن الإنسانية الأصلية المجردة، فيشعر بيأس شديد، وتشاؤم على مستقبل مصر، فيتوقع ظهور صورة عروس النيل لتجعل مصر تُبعث بعثاً جديداً في هذا الظل الرمادي.

وقد حققت الحضارة المصرية القديمة ازدهاراً شاملاً وعظيماً سواءً في الميدان الاقتصادي، أم في الميدان الثقافي بفضل عروس النيل، لكن من الممكن أن يكتشف العائد وجود الأمراض في مصر جسمياً ونفسياً في الفترة المعاصرة، فمن هي عروس النيل لتبعث مصر في تلك الفترة؟ في الحقيقة لا يدري العائد، كذلك لا أحد يعرف عروس النيل في هذه الفترة، فما زال العائد ينتظر ظهور عروس النيل، لأنه يثق أن مصر قادرة على البعث الجديد في يوم من الأيام، رغم أن زمن الانتظار ربما يكون طويلاً وبعيداً، وهذا هو الاختيار الوحيد.

ثانياً- أسطورة إيزيس وأوزوريس:

وكما وظفت رواية "بلد المحبوب" أسطورة عروس النيل الفرعونية، لارتباط الإرث الفرعوني بأحوال مصر الحديثة وما طرأ عليها؛ فالرواية تستدعي أسطورة "إيزيس وأوزوريس" في الجانب المقابل. وتعد أسطورة "إيزيس وأوزوريس" أسطورة البعث، وإن كلمة "البعث" هي الهدف والغرض الأخير لهذه الرواية. كما أن العائد ما زال ينوي تحقيق فيضان النيل، وبعث محبوبته من جديد تحت الأحوال المستحيلة التي تحدث. وعلى ذلك فالمحبوبة هي رمز لمصر، إنها شخصية متخيلة في عين العائد وتوجد في توهمه فقط.

وفي أسطورة "إيزيس وأوزوريس"، «كان أوزوريس في قلب البشر، فهو يقاسي ما يقاسيه الإنسان وأن كان في ذات الوقت تجسيداً لكل قوى البعث والخصوبة في الدنيا. وهو القوة التي تعمل على نمو النبات وتوالد الحيوان وتناسل الإنسان. هو الموت ونبع الحياة في آن واحد. لذا كان التوحد مع أوزيريس توحداً مع الدورات الكونية للموت والميلاد من جديد»(١).

«وكان الإله أوزوريس ملكاً بارعاً لمصر القديمة قبل وفاته، بل تذكر الحقائق أنه كان حاكماً ممتازاً، وكان لا يعلّم قدماء المصريين الزراعة ويجلب الحضارة إلى هذه الدولة فحسب، بل ينشر الحضارة المصرية في كل ركن من أركان العالم»(٢).

«وذات يوم، خرج أوزوريس للقيام بدوريات وإرشاد الناس زراعياً، ودعا زوجته إيزيس لتدير الدولة وتعالج مهماتها في أيام غيابه. ولكن كان شقيقه الأصغر "ست" يشعر بالغيرة من عرشه وحقوقه، فحاك مؤامرة ضده، وألقى

(١) رندل كلارك، الرمز والأسطورة في مصر القديمة، ترجمة: أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م، ص ٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٠.

أوزوريس إلى النيل بيد "ست" وغرق»[١].

«وعندما علمت إيزيس زوجة أوزوريس بالخبر المؤلم، كانت تتحسر عليه للغاية وبدأت رحلتها الطويلة للعثور على زوجها أوزوريس، ثم وجدت زوجها وحاولت إنقاذه ولكن كشف "ست" الحيلة وقتل أوزوريس مرة أخرى، وقسّمه أيضاً إلى أربع عشرة قطعة، وألقى قطع الجثة في كل حدب وصوب. وجمعت إيزيس قطع هذه الجثة معاً بعد متاعب ومصاعب لا حصر لها، ورتلت التعويذة مرة أخرى لإعادة حياة زوجها، وأنجبت ابنه حورس. وانتقم حورس لوالده بعدئذ، ويتنازع على العرش مع "ست" في الحرب التي جرت خلال ثمانين سنة، وأخيراً حصل على ثمار نصر الحرب. وبعد ذلك صار حورس ملك الصعيد. لذلك أطلق كل ملك مصري على نفسه اسم "حورس" بعده لكي يعلن عن حكمه الذي ورثه على يد حورس»[٢].

«وتتم إعادة حياة أوزوريس بعد الموت وقدرته على البعث، كمياه نهر النيل التي تدور في حلقة مفرغة بنفسها عاماً بعد عام. حين مات أوزوريس كان موسم جفاف مياه النيل؛ وحين بعث كانت فترة فيضان مياه النيل. حيث لون بشرته الخضراء يرمز للبعث وإعادة الحياة بعد الموت»[٣].

فمن الممكن أن نلمح في هذه الرواية، حيث بحث العائد من الخارج عن محبوبته للقائها على مياه النيل، وتمنى أن النيل يفي بوعده أي يفيض في لحظة اللقاء، وأخيراً حنث النيل بوعده وغرقت محبوبته في بحر النيل في الرواية.

---

(١) مارجريت بنسون، موسوعة مصر القديمة، أكسفورد ونيويورك: حقائق في الملف، ١٩٩١م، ص ٩٥.

(٢) مارجريت بنسون، موسوعة مصر القديمة، أكسفورد ونيويورك: حقائق في الملف، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٧.

وبالعكس في أسطورة "إيزيس وأوزوريس" «بحثت إيزيس عن زوجها أوزوريس بعد أن يُلقى في النيل ويقسم إلى أربعة عشر قطعة بيد "ست"، وأخيراً أكملت جمع كل القطع وقامت بترتيل التعويذة عليه، للبعث وإعادة حياته بعد الموت»[١].

لذلك ففي رواية بلد المحبوب «إيحاء بفشل حدوث معجزة فيضان النيل مائة بالمائة، ولقاء العائد مع المحبوبة والنيل هو مأساة للغاية»[٢]. وبكلمة أخرى، بعدما اكتشف العائد أن محبوبته صارت عاقراً طوال حياتها، كأن مصر ضاعت في حضارة الصناعة الرأسمالية الرمادية وعالم الفساد، سواءً أكانت في جسمها أم كانت في نفسها، وهذا ما يدل على احتجاج العائد على الأوضاع التي تتعرض لها مصر.

والراوي يرى أنه لم يفيض النيل، وما زالت مصر تعاني من الفساد، الذي يتلوث بحضارة الصناعة الرأسمالية، الآن صارت مصر متعبة ومسرعة حتى التخلي عن الإنسانية الأساسية، وجماهير المصريين صاروا باردي القلب، وآلات لهدف المال بأي وسيلة وإنفاقه بسرعة، كما يلاحظ أن العائد يسعى وراء الغرضين، وهذان أيضاً ما ينوي الراوي أن يبحث عنه وينشره في الرواية. كأن الرواية تهدف إلى بيان كيف نستعيد وعي الحياة المختصر والقوي. وكيف نبعث الإنسانية الأصلية للجماهير المفقودين في ظل الحضارة الصناعية الرأسمالية.

– فقد ورد في الرواية: «لو فاض النهر لشفي المرضى، وغسلت الضحكات الصافية قلق الوجوه، ولعن الناس الفلسفة كاملة. لو فاض النهر لأبصر الأعمى، وسمع الأصم، ونطق الأخرس وأنجبت العاقر، ولضاقت

(١) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٢) ناقد أدبي وباحث أكاديمي، "بلد المحبوب" ليوسف القعيد: مرثية شجية لوطن مُستلب، دورية صحفي، ٣/١٠/ ٢٠١٠.

المسافة بين الذين يموتون من الجوع والذين يموتون من التخمة، ولتطهر النهر واغتسل البر كله، وانتهى الدنس من أرض الوادي، ولأسمرت الصحاري، وقال باطنها، وحكى وتكلم عن أسراره الكثيرة لو فاض النهر، وآه من كلمة لو هذه»[١].

ثالثاً– أسطورة "ثلاثة أنهار":

تدور بعض الأعداد دوراً مهماً وحضوراً مميزاً في الفكر الإنساني وإبداعاته، «ومن أكثرها شيوعاً، ومن أكثرها ارتباطاً بما هو أسطوري؛ الأعداد: ثلاثة، وسبعة، وتسعة، التي نالت جميعها حظوة خاصة عند غابر الأمم وفي سالف المعتقدات، ليس بسبب تردد أصدائها في جنبات المغامرات الأسطورية فحسب، بل بسبب ارتباطها بدلالات سحرية في الكثير من تلك المعتقدات، وفي بعض الديانات، ولدى عدد من الشعوب أيضاً»[٢]، وقد جاء في هذه الرواية عندما يقدم صديق العائد له عنوان محبوبته السابقة، يقول بطابع الأسطورة:

قال لي إن عنوان محبوبتي لا يكتب في أوراق. فهي تعيش مع زوجها وأولادها في مدينة تنام في حضن ثلاثة أنهار.

– أنهار ثلاثة؟!

تساءلت:

– وهل في مصر أنهار ثلاثة في حالة عناق؟»[٣].

ثم استمر العائد نفسه في تخيل الأنهار الثلاثة في أرض مصر، ووصفها يغلب عليها بشكل أسطوري، كما يذكر في الرواية:

«ثلاثة أنهار في الوطن ويعاني؟ كيف هذا؟ بدا الموقف مثل الحكايات

(١) يوسف القعيد، بلد المحبوب، مصدر سابق، ص ١٧٤.

(٢) نضال صالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق– سوريا، ٢٠٠١م، ص ١٣٥.

(٣) يوسف القعيد، بلد المحبوب، مصدر سابق، ص ٤٦.

التي كنا نسمعها ونحن صغار. تخيلت حال الوطن. نهر يجيء فيه ماء يحمل الطمي. ماء بني اللون. ونهر تجري فيه ماء الحياة. تشفي المريض وتعيد العمر من جديد وتحمل منها حتى المرأة العاقر. والنهر الثالث يجري فيه العسل الأبيض»[1].

ومن المعلوم أن الأنهار هي مصدر الحياة البشرية. وفي هذه الرواية، إن الأنهار ليست مجرد وجود مادي، أو ذكرها العائد كموضوع للوصف، إنما تعتبر ناقلاً يحتوي على تجربة حياة العائد، ويسلط الضوء على دلالة الحياة، والتي تمنح معاني رمزية متعددة بيد العائد. حيث يرمز النهر إلى الحياة، ويشهد على تكاثر الحياة وتجددها في كلمات الرواية. عندما يرتبط النهر بالحياة ارتباطاً وثيقاً، أصبح النهر ضميراً للحياة إلى حد ما، فصار نهر الحياة. في الوقت نفسه، يتم استخدام الأنهار الثلاثة كمجاز ليصبح النهر البيت الروحي، الذي يبحث عنه الأشخاص المعاصرون، بعد هزيمة الذات أو تحت ظل الحضارة الصناعية الرأسمالية القاسية، حتى يتمكنوا من الحصول على الراحة النفسية المفقودة منذ فترة طويلة.

رابعًا- دلالات فيضان النيل:

في حياة مصر القديمة، كان النيل يفيض كل سنة حاملاً المياه المملوءة بالطمي والرمال معًا، وعند انحسار المياه يتراكم الطمي والرمال على ضفتي النهر، مخصباً الأراضي. حيث بدأ قدماء المصريين يحرثون الأرض ويبذرون البذور وهم منتظرون نمو المحاصيل حتى تنضج. ويمكن القول إن فيضان النيل جلب الحيوية والفرح لمصر. كما ذهب قدماء المصريين إلى أن فيضان النيل يرمز إلى أمل وبعث الحياة والحصاد الوافر في الأيام القادمة، وأن التوق إلى

(١) يوسف القعيد، بلد المحبوب، مصدر سابق، ص ٤٧.

الحصاد الوافر يبرز انتشار وروعة الحياة والمستقبل المشرق بأيديهم المجتهدة.

- أما فيضان النيل في رواية "بلد المحبوب" فهو وعد النيل للعائد في الحلم، عندما التقى بمحبوبته في قلب نهر النيل. خُيِّل إلى العائد أن حدوث فيضان النيل سيستحضر لحظات السعادة الحقيقية لأي شخص، فلا مشقات ولا صعوبات على أي شخص في هذه الدنيا. كما ورد في الرواية:
- «لو فاض النهر لشفي المرضى، وغسلت الضحكات الصافية قلق الوجوه، .... من الجوع والذين يموتون من التخمة، ولتطهر النهر واغتسل البر كله وانتهى الدنس من أرض الوادي، ولأسمرت الصحاري، وقال باطنها، وحكى وتكلم عن أسراره الكثيرة لو فاض النهر، وآه من كلمة لو هذه»(١).
- فإذا فاض النيل، أصبح لون بر مصر كله أخضر يرمز إلى الأمل والبعث. ولكن في الحقيقة قد تغيرت حالة فيضان النيل ولم يعد النيل يفيض. ففي عام ١٩٧٠، اكتمل بناء سد أسوان العالي، فمنع وصول الفيضان لمصر، كما ورد في الرواية:
- «وقال لي زملاء الغربة ورفاق الحل والترحال إن فيضان النيل، علاوة على أنه معجزة مستحيلة الحدوث الآن، فهو سيغسل الوادي كله»(٢).

لقد اكتشف العائد أن مصر تتغير بشكل غريب بعد عودته من الغربة، ولا يعجبه الشكل الجديد، كالعالم يتخلى عن الإنسانية الأساسية في ظل تطوير الحضارة الصناعية الرأسمالية السريع، حتى أنه يريد العودة إلى الزمن الأخضر الجميل، الذي أمضاه مع محبوبته مرة أخرى، وتصبح علاقتهما حميمة وثيقة، مثلما كانت في زمن الحب.

(١) يوسف القعيد، بلد المحبوب، مصدر سابق، ص ١٧٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١١.

فمحبوبته تشير إلى مصر، بلده العزيز، ورغم ما يواجه مصر المتعبة المرهقة جسمياً ونفسياً فلا يزال يتمنى أن يحدث فيضان النيل، لكي تبعث مصر، بتغسيل فيضان النيل بعثاً حيوياً، وتعود الإنسانية الحقيقية إلى جماهير مصر، لينالوا سعادة الحياة جسمياً ونفسياً، كما قال سائق سيارة أجرة في الرواية.

«قال السائق أن أمله الوحيد، أن يجلس أمام الجوزة باقي أيام عمره، دون أن ينادي عليه أحد. قال إنه حرام أن يقضي عمره في العمل، ولا حتى نصف عمره أو ربعه. إن الإنسان لم يخلق من أجل العمل فقط»(١).

فالعائد يعبر عن عزمه لتحسين وتصليح البيئة الاجتماعية التي تمتلئ بفساد الأموال، وانحلال الإنسانية تحت شهادة فيضان النيل، رغم أنه يعرف أن فيضان النيل مستحيل حدوثه في مصر الآن. وحباً لوطنه وبلده العزيز مصر يحتاج إلى حدوث المعجزة واستعادة الحيوية والأمل لمصر بالضرورة، فقام بالدعاء الأخير المتحسر المتاسف بكل قوته جسمياً ونفسياً، لتستيقظ مصر من حالها المريضة، حتى تبعث بشكل صالح، لإسعاد جماهير الشعب الكثيرة في مصر العظيمة، وربما كان هذا الدعاء هو الاحتجاج المكتوم لرائحة الفساد، كما ورد في نهاية الرواية:

«ورغم الحزن كان لديّ يقين وحيد، لابد من لقاء محبوبتي ولا مفر من فيضان النيل، قلت لنفسي: لابد، لا مفر»(٢).

خامساً- رمزية المطر:

ويعقد المؤلف الصلة بين العائد ومحبوبته والنيل والمطر، حيث يستطيع العائد أن يلتقي بمحبوبته والنيل تحت شهادة الأمطار الغزيرة، وهذا يوحي إلى

(١) السابق، ص ٧٨.

(٢) يوسف القعيد، بلد المحبوب، مصدر سابق، ص ١٨٢.

بداية جديدة لحياتهما وحياة النيل، مما يجعل الجماهير يصلون إلى السعادة جسمياً ونفسيًا.

إذ يرمز المطر إلى تغير وبعث الحياة، والحرية الشاملة والدائمة، والسعي وراء الكرامة والسعادة.

كما يرمز المطر في الرواية إلى تطهير وبعث الحياة لتحقيق النظافة النفسية الحقيقية، في ظل هجوم الحضارة الصناعية الرأسمالية الثقيل.

وقد ورد في الرواية:

– تمنيت لو أننا التقينا –أنا ومحبوبتي والنيل– في يوم ممطر، يوم تفرغ فيه السماء حمولتها من مياه الأمطار التي تختزنها لمدة عام. لو أننا التقينا في زمن المطر كان الماء سيغرق اللقاء كله، ماء من الجهات الأربع، ماء من تحتنا وماء من فوقنا(١).

سادساً– دلالات اللون الأخضر:

إن اللون الأخضر من الألوان المحبوبة، ذات الإيحاءات المبهجة كالأبيض. «جاء هذا اللون في الأدب رمزاً للمفاهيم الإيجابية كالسعادة والحرية والتجدد. وهو لون الأمل، القوة، طول العمر. وهو لون الخلود، الذي ترمز إليه كونياً الغصون الصغيرة الخضراء»(٢).

وجاء في الرواية رمزاً للحب والإخلاص لوطن العائد "مصر":

– «أخرج الضابط الشاب، بهدوء، الجواز من غلافة الجلدي الذي كنت أضعه فيه. كان الغلاف أخضر، مكتوباً عليه بماء الذهب عبارة: "الجمهورية العربية

(١) المصدر السابق، ص ١١٣.

(٢) كلود عبيد، الألوان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٣م، ص ٩٣.

المتحدة". كنت أحتفظ به وأصر عليه، رغم قدمه وتباعد زمانه»[١].

ويدل اللون الأخضر على مفاهيم عديدة بسبب جماله وسحره وشموله على أشياء شتى في الحياة.

وقد وصف العائد الجزيرة التي تمكث محبوبته فيها باللون الأخضر، وخُيِّل إليه أن يرمز بالوصول إلى الجزيرة الخضراء إلى أمل وبعث الحياة في أرض مصر.

وقد ورد في الرواية:

- «ولكن المياه التي توجد في كل مكان حولنا تجعل الهواء مشبعاً بالماء، وتعطي الخضرة التي تفرش الأرض كلها لوناً لم أره سوى هنا فقط»[٢].
- «أشجار وخضرة، ماء وهدوء، عالم من الألوان ومن البهجة التي تفرض نفسها على كل حواسي»[٣].

كما خلع على صورة المحبوبة اللون الأخضر. فما زالت مصر تبقى بلون أخضر في نفس العائد، فاعتبر المحبوبة صورة تحمل لوناً أخضر.

وقد ورد في الرواية: رأيت محبوبتي، أصبح ظهرها جزءاً من خضرة الأشجار وزرقة السماء ولون ماء النيل، إن الزمن الذي لم أتصور مجيئه قد جاء أخيراً. ها هو الماء "ماء النيل" بالذات وليس أي ماء آخر.

والخضرة، الخضرة الخارجة من بر مصر وليس أي أرض أخرى، والوجه الحسن، بل الوجه الأحسن.

(١) يوسف القعيد، بلد المحبوب، مصدر سابق، ص ٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠١.

(٣) السابق، ص ١١١.

الخاتمة

إن الكاتب "يوسف القعيد" عُرف بنبرته الناقدة، وقد ظل يهتم بقضايا وطنه اهتماماً شديداً طوال حياته في كتبه ورواياته.

وفي رواية "بلد المحبوب" وظف القعيد عدداً من الأساطير والرموز الطبيعية.

وأتت في الرواية دعوة البعث تسعى إلى بعث جسد مصر المادي، كما تسعى أيضاً إلى روح مصر.

وقد توصلت هذه الدراسة إلى عدة نتائج، كما يلي:

١- تتميز رواية يوسف القعيد بحب وطنه مصر، والاعتزاز بنهر النيل العظيم، الذي جعله الراوي أنشودة مُحببة على مدى أحداث الرواية.

٢- لقد وظَّف المؤلف الأسطورة والرموز الطبيعية، في البناء الفني للرواية، ليتخذها وسيلة للنقد والتقويم.

٣- أتت الأسطورة في الرواية ذات مرجعية ثقافية واجتماعية، إذ حفلت الرواية بعدة رموز أسطورية، ومنها، أسطورة "عروس النيل"، أسطورة "إيزيس وأوزوريس"، حكاية "الثلاثة أنهار"، وكذلك الرموز الطبيعية المتصلة بفيضان النيل، والشجر، والمطر، واللون الأخضر.

٤- جاء توظيف العناصر الأسطورية والرموز الطبيعية ليعكس الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي المعاصر لتأليف الرواية، من خلال إدراك الدلالات والإيحاءات.

٥- فكرة البعث هي الهدف من الرواية، فالرواية تستدعي أسطورة "إيزيس وأوزوريس" التي تُعد أسطورة البعث.

٦- واستدعت الرواية أسطورة "عروس النيل" لأنها تحمل رمز البعث، إذ اكتسب قدماء المصريين الحصاد والخير والسعادة بسبب عروس النيل التي تجلب الفيضان كل عام، كما ورد في الأسطورة.

٧- الرواية تعبر عن صوت الكاتب "يوسف القعيد" المتميز بحب بلده الحبيب "مصر"، والتزامه بقضايا وطنه العزيز في تلك الفترة المعاصرة.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر:

١- يوسف القعيد، بلد المحبوب، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٨٧م.

٢- إبراهيم فتحى، معجم المصطلحات الأدبيّة، المؤسسة العربيّة للناشرين المتّحدين، تونس، ١٩٨٦م.

٣- أحمد خليل، معجم المصطلحات الأسطورية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٤- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سوشبريس، ٢٠٠٣م.

٥- ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٩٣م.

٦- نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، مكتبة لبنان ناشرون السلسلة، ٢٠٠٣م.

ثانياً- المراجع:

٧- أحمد محمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨م.

٨- أنطون غطاس كرم، الرمزية والأدب العربي الحديث، بيروت، دار الكشاف، ١٩٤٩م.

٩- بهاء بن نوار، الواقع والممكن: دراسة عن العجائبية في الرواية العربية المعاصرة، فضاءات للنشر والتوزيع، ١/١/٢٠١٤.

١٠- حسن نعمة، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٤م.

١١- درويش الجندي، الرمزية في الأدب العربي الحديث، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٨م.
١٢- سيد محمود القمنى، الأسطورة والتراث، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٣م.
١٣- سيناء شعلان، الأسطورة في رواية نجيب محفوظ، نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي، ٢٠٠٦م.
١٤- سعيد بوسقطة، الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، منشورات بونة للبحوث والدراسات، ط٢، الجزائر،٢٠٠٨م.
١٥- طراد الكبيسي، مقالة في الأساطير في شعر عبد الوهاب البياتي، منشورات دار الثقافة، دمشق، ١٩٧٤م.
١٦- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦م.
١٧- فراس السواح، الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا، الديانات الشرقية، دار علاء الدين، دمشق، ط٨، ١٩٩٧م.
١٨- كلود عبيد، الألوان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٣م.
١٩- مارجريت بنسون، موسوعة مصر القديمة، أكسفورد ونيويورك، حقائق في الملف، ١٩٩١م.
٢٠- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.
٢١- مرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ١٩٩١م.
٢٢- نورة بنت إبراهيم العنزي، العجائبي في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ٢١/٣/٢٠١١.

٢٣- نبيل الشاهد، العجائبي في السرد العربي القديم، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠م.
٢٤- نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١م

ثالثاً- المراجع المترجمة:

٢٥- تزفيتن تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبيّ، ترجمة: الصديق بوعلام، دار شرقيات، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.
٢٦- رندل كلارك، الرمز والأسطورة في مصر القديمة، ترجمة: أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.
٢٧- فردريش فون ديرلاين، الحكاية الخرافية (نشأتها، مناهج دراستها، فنيتها)، ترجمة: نبيلة إبراهيم، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣م.
٢٨- ميشال فوكو، المعرفة والسلطة، ترجمة: عبد السلام بن عبد العال، دار الشرق، ط١، ١٩٨٤م.
٢٩- نورثروب فراي وآخرون، الأسطورة والرمز: دراسات نقدية لخمسة عشر ناقداً، ترجمة: جبرا إبراهيم، ١٩٨٠م.
٣٠- وول شوينكا، الأسطورة والأدب والعالم الإفريقي، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦م.

رابعاً- المجلات والدوريات:

٣١- أحمد الناوي بدري، الراوي في الرواية العجائبية، مجلة دراسات وأبحاث، ٥/٢/٢٠١٣.
٣٢- أماني فؤاد، بنية السرد بين الواقع والأوهام في رواية "بلد المحبوب"، دورية الحوار المتمدن، ٢٠١٣م.
٣٣- الشيماء أحمد فاروق، في عيد الوفاء.. ﴿عروس النيل﴾ أسطورة رسختها الأفلام ونفاها المؤرخون، مجلة الشروق، ١٥/٨/٢٠١٩.

٣٤- سناء سلمان عبد الجبار، رمزية العنوان في كتب الربيعي، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، العدد ٣، ٢٠٠٧م

٣٥- عدلي الهواري، الغربة والاغتراب في أدب يوسف القعيد، مجلة ثقافية فصلية، ٢٠١٠م.

٣٦- ناقد أدبي وباحث أكاديمي، "بلد المحبوب" ليوسف القعيد: "مرثية شجية لوطن مُسْتلب"، دورية صحفي، ١٠/٣/٢٠١٠.

خامساً- مواقع الإنترنت:

٣٧- أنس أبو حمدة، نشأة المذهب الرمزي، موقع سطور، ٢٣/٦/٢٠١٩، https://sotor.com/

□